سلسلة

اللّه جل جلاله

(3)

الأسئلة المصيرية

لماذا أنا؟ ومن أين؟

وإلى أين؟ ولم؟!

أحمد الجوهري عبد الجواد

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله سبحانه وتعالى وبحمده، وصلاة على رسوله وسلامًا، ورضوانًا على صحابته وتابعيهم حتى نلقاهم، أما بعد، فهذه كلمات يسيرة في قضية " الأسئلة المصيرية: لماذا أنا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ ولم؟! " تلك الأسئلة التي يجب على كل عاقل أن يسألها لنفسه ويقف على الأجوبة الصحيحة عنها، لتوقف حياته وسعادته في الدنيا والآخرة عليها.

التقطتها من كتاب "القضايا المبدئية والمصيرية الكبرى للإنسان" للعلامة يوسف القرضاوي – أسكنه الله الفردوس – أسأل الله أن ينفع بها كاتبها وقارئها ومن كان في عملها بين الكتابة والقراءة إنه خير مسؤول.

أحمد الجوهري عبد الجواد

ماذا أنا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ ولم؟

هذه هي الأسئلة الكبرى التي ينبغي أن يهتم بها المسلم وغيره ويعمل عقله فيها وتؤرقه وتوقظه وتتعبه، فإنها القضية الأولى والأهم التي يجب أن يبحث في أجوبتها، وهي المبدأ والمصير وما بينهما.

وعلى المسلم واجب آخر نحو هذه الأسئلة – مع العلم بها والعمل بمقتضاها – وهو أن يدعو غيره إليها ويعرفه على أجوبتها التي جاء بها الكتاب والسنة، كما هو مقتضى عموم رسالة الإسلام، وهو الواجب الذي يقصّر فيه المسلمون كثيرًا ولم يقوموا به على الوجه المطلوب من إعداد الدعاة واتخاذ الوسائل وبناء الخطط فإنهم وحدهم المنوط بهم بيان هذا وبلاغه للناس.

في حياة كل إنسان قضية أساسية كامنة في ضميره تلح عليه في طلب علاجها وعندما يقف على جواب لها صريح بعد تعب يسعد ويهنأ، وليس هناك مشكلة إلا ولها حل والواجب على الإنسان أن يظل في البحث عن حل مشكلته إلى أن يجده.

وأعظم قضية ينبغي أن تلح على الإنسان – كل إنسان– هي قضية المبدأ والمصير: ماذا أنا؟ وماذا بعد ذلك؟

ماذا أنا؟

كائن تابع، محتاج، ينبغي أن يتأمل ذاته – الجسد والروح أصلهما وغذاءهما.–

وإلى أين؟

وماذا بعد ذلك؟ لو أعرضت عن هذا السؤال وانشغلت بالملذات طيلة حياتي إلى أن أموت، فماذا بعد الموت؟

وهذا سؤال يجب على كل عاقل أن يسأله لأنه لا مفر له من أن يمر به، وسينتهي به التفكير إلى أن لنا حياة أخرى سوف نحياها ويجب أن نعمل لها.

المؤمن بالله ورسله والدار الآخرة يعلم أن المصير إلى جنة أو نار.

ولهذا يحرصون على الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح ويدعون الناس إلى ذلك بتفاصيله وبيان ثماره وآثاره، ويبينون لهم حقيقة الدنيا وما فيها وضرر الاشتغال بها عن الآخرة وما فيها من نعيم مادي وروحي عظيم أو عذاب مادي وروحي أليم مقيم، ويقارنون لهم بين نعيم الدنيا الفاني ونعيم الآخرة الباقي وحال أهل هذه وحال أهل هذه.

ويكفي أن يقرأ المرء آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة المطهرة في هذا وهذا ليعلم ما ينتظره وما ينبغي عليه أن يختاره ويسلك طريقه، فالأمر جد خطير، يجب أن يأخذ الإنسان نفسه تجاهه بالعزم والحزم.

والمؤمنون في دعوتهم إخوانهم من البشر إلى هذا لا يطلبون منهم أجرًا.

ومن الأسئلة الخطيرة التي يجب أن تلح على الإنسان ويلح هو من أجل الوقوف على أجوبتها الصحيحة: من أين أنا؟ ولماذا خلقت؟ وما غاية خلقي؟

من أين أنا؟

أما الماديون الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه حواسهم – يخنقون صوت الفطرة ويتحدون منطق العقل – فتصيبهم الحيرة ولا يجدون جواب هذا السؤال، وأما المستجيبون لهذا الصوت ولهذا المنطق فإنهم يقرون بأن لهم ولهذا الكون حولهم ربًّا عظيمًا، وهو أمر يشترك فيه جميع بني الإنسان فإن الإيمان بالله غريزة فطرية وضرورة عقلية، هذا الرب العظيم هو الذي خلقنا وأوجدنا وأوجد هذا العالم.

ولم خلقت؟

فقد ميز الإنسان بقوى وملكات كثيرة – عقل، إرادة، روح.. إلخ – على سائر المخلوقات، فما مهمته في الأرض؟ مهمته أن يكون خليفة لله في الأرض: يعرف ربه حق معرفته ويعبده حق عبادته، وكل تصرف سوى هذا هو خطأ محض زينه له الشيطان عدوه.

هل يمكن أن يعيش الإنسان بغير دين؟ وما هو الدين الذي يرتضيه الإنسان لنفسه؟

أما الملحدون الذين لا يؤمنون بدين بل يقولون: إن فكرة الدين اخترعها ذهن الإنسان؛ لأنه لا يقر بغير المحسوس، مع أنه يؤمن بعقله وعقله هذا لا يقع تحت الحس – وقد سبقت مناقشة هؤلاء في رسالة "وجود الله" وأقمنا الدليل على ذلك من الفطرة والكون – فيقولون: يمكن للإنسان أن يعيش بلا دين.

وأما المؤمنون الذين ناقشوا هؤلاء بالحجة والبرهان وغلبوهم فيعتقدون أنه لا بد للإنسان من دين، وأن أمر الدين ليس أمرًا هينًا ليؤجل، فلا بد للإنسان من دين، فإن مع الجسد روحًا ومع الحياة موتًا ومع الدنيا آخرة فيها حساب وجزاء.

وهذا الدين لا بد أن يكون من السماء فلا يليق أن يخرج الإنسان – العاقل المفكر – من خرافة الإلحاد إلى خرافة الوثنية التي اخترعها المنتفعون بها حسب

الأهواء والأوهام، فهذه انتكاسة لسيد هذا الكون أن يذل لمن هو في الأصل قد سخر له.

وهذا الدين السماوي لا يصح أن يكون غير الإسلام الدين العالمي {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}، الخاتم {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين}، وهو الدين المناسب للإنسان المكرم.

وليس اليهودية التي ضاع كتابها "التوراة" تحت سطوة الظروف والنسيان والنقص والزيادة والتحريف المعنوي لما بقي منه، فوق أنها كانت رسالة محدودة في الزمان والمكان والجنس.

وليس المسيحية الرسالة الخاصة ببني إسرائيل التي أضاعت كتابيها معًا "التوراة والإنجيل"، بل التي جاء نبيها عيسى عليه السلام يبشر بنبي الإسلام يجيء من بعده: {ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} صاحب الرسالة المستمرة الدائمة، والشريعة الجامعة للأصول اللازمة للحياة الإنسانية المتكاملة والمتوازنة في العقائد والعبادات والأخلاق والآداب والمعاملات.

الإنسان مخلوق مكرَّم مختار

الإنسان في نظر الإسلام مخلوق فريد، مكرَّم، سيِّد على الكائنات، عبد لله جلّ جلاله، ولهذا يحفظه الله تعالى ويحافظ عليه من الشيطان ومن نفسه ومن المضلَّات بهداية الفطرة والعقل والرسالة.

والإنسان مخلوق مهيَّأ للخير والشر {وهديناه النجدين}، ثم طالبه الله تعالى بفعل الخير واجتناب الشر، فمن استجاب اهتدى ومن لم يستجب ضل {قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها}.

والإنسان حر ليس مجبورًا مقهورًا، أعطاه ربه العقل والإرادة والقدرة، ولم يفرض عليه فعل شيء، هو من يختار مسيره ومصيره، وعلم الله تعالى ذلك وكتابته له وإرادته له وخلقه له لا يجعل الإنسان مكرهًا على فعل شيء منه، فلا يصح أن يحتج الإنسان بالقدر على سلوكه السيئ بل يجب أن يسعى حسب الشرع ليحسن سلوكه وأخلاقه ومعاملاته وآدابه وترى فيه آثار عقيدته وعبادته.

أعذار غير مقبولة

يحاول الناس التنصل من أعمالهم ومسؤولياتهم بأعذار وتعلّات شتى، منها:

الأصدقاء هم الذين ضللوني وأغروني بتضييع عمري في الشهوات، وقد ذكر القرآن الكريم نموذج هذا في غير سورة، منها سورة الفرقان: {ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا. يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانًا خليلًا. لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولًا}.

المرأة هي التي أضلتني وقفت في طريق هدايتي ومكنت الشيطان من غوايتي، ويسوق هذا البعض قصة إغواء حواء آدم التي وردت في التوراة محرفة، وفي القرآن الكتاب المصون من التحريف والتبديل والتغيير أن الشيطان هو الذي أغوى آدم وتبعت حواء آدم.

الطوائف الأخرى المخالفة لطائفتي هي التي أضلتني حين أخفت الحقيقة عني، يقول هذا السادة والأتباع والرؤساء والشعوب، ويقوله المتكبرون والضعفاء، والشيطان ومن أضلهم، وقد ذكر القرآن نماذج لهم وحكى مقولاتهم.

إبليس هو الذي أغواني وأفسدني، وقد أخذ الشيطان على عاتقه إضلال بني آدم بكل طريق، لكنه صدق في قوله: {وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم} .

وهذه كلها أعذار – كما نرى – غير مقبولة، فينبغي أن يترفع العاقل عليها.

ماذا يقدم الدين الصحيح للإنسان؟

إن الدين الصحيح ينفع الإنسان بما يفيده في حياته التي يعيشها، ويقدم الحلول لمشكلاته التي يواجهها.

فالدين يحقق الأمن النفسي للإنسان، ويصحح له غايته حسن الصلة بالله وتحصيل مرضاته – التي هي

هدف الأهداف الإنسانية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وكل شيء، ومن آثار وفوائد هذه الغاية الربانية: معرفة غاية الوجود الإنساني، وهدايته إلى الفطرة والإيمان والسعادة، وسلامة نفسه من التمزق والصراع الداخلي والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات وشتى الاتجاهات، والتحرر من العبودية للأنانية والشهوات واللذات الحسية.

والناس تختلف غاياتهم وتتنوع؛ بعضهم غايته عبادة نفسه وشهواته ومصالحه، وهذا الصنف الأنعام أفضل منه؛ لأنها تؤدي المهمة المنوطة بها في الوجود رغم أنها لم تؤت ما أوتي الإنسان من المواهب الفكرية والروحية والنعم الدنيوية والدينية، بخلاف الإنسان.

وبعضهم غايته الإذلال والإضرار والإفساد والكيد للعباد، فالسابق أناني شهواني وهذا أناني عدواني.

وبعضهم غايته الله ووسيلته عبادته وما الدنيا إلا أداة تعينه على هذا يملكها ويسخرها ويجعلها في يده

ويضعها حيث أمر ربه، وهذا الصنف هو الذي يسعد نفسه وليس السابقين فهما أخسراها وأضاعاها.

وهكذا يتنوع الناس بين هذه الأصناف الثلاثة: حيواني، شيطاني، رباني.

والدين يرد الإنسان إلى فطرته السليمة، وهناك يلتقي بإخوانه المؤمنين من أول البشرية إلى آخرها: النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وفي القرآن الكريم: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان..}، وفي كل صلاة يكرر المسلم: "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "فإنكم إذا قلتم ذلك أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض."

هل للدين مكان في عصر العلم؟

ينفر البعض من النهج الإسلامي لأنه يعتمد على الدين ويستند إلى الوحي، يظنون الدين مضى وقته ونحن الآن في عصر العلم، بحجة أن الدين يعادي العلم وقد تقدم

الغرب لما تخلى عن الدين، وأن البشرية انتقلت من طور الدين إلى الفلسفة ثم العلم فلا ينبغي أن تعود إلى الخلف، وأن تنحية الدين اليوم واجبة لئلا يقنع الدين الإنسان بالخنوع والتسليم والإذعان.

ويغفل هؤلاء عن أن الدين الذي عادى العلم هو دين الكنيسة الغربية وليس دين الله – الإسلام –، أما موقف الإسلام من العلم والعقل فمعروف يبلغ الذروة ولم يصل إليه فيها غيره، ولهذا كان له أثره العظيم في الحضارة البشرية – الإسلامية والغربية – بشهادة غير المسلمين قبل المسلمين، وما كان هذا إلا من أثر توحيد الإسلام بين الدين والعلم، وحض الدين على حرية التفكير والبحث وأن الإسلام أعظم من جاهد من أجل رقي الإنسان وعزته وكرامته ورفعة شأنه.

فمن غير الإنصاف أن يشان الإسلام بعيوب غيره وأن تلصق به أدواء هو من جاء بدوائها وعلاجها.

الطب النفسي في موكب الإيمان

أسهمت كل العلوم بقدر ما في إقامة الأدلة على وجود الله تعالى، ومن العلوم التي أسهمت في هذا – وإن كان بقدر ضئيل –: علم النفس، فكثير من الأطباء النفسيين قد ثبتت لديهم بالتجارب المتكررة أن الإيمان بالله والآخرة من أعظم الأدوية الفعالة في القضاء على الأمراض النفسية، وكثير منهم استعان بالدين في علاج مرضاهم فنجحوا أعظم نجاح وسجلوا ذلك في بحوث ومقالات وكتب نشروها على الناس، مثل: هنري لينك في كتابه: "العودة إلى الإيمان" وغير هنري لينك كثيرون.

ورأينا من المفكرين والفلاسفة من يعتقدون بنفع الإيمان بالله باعتباره قوة هادية موجهة وقوة مؤثرة دافعة وقوة منشئة خلاقة، لها طيب الأثر في نفس الفرد وفي حياة المجتمع، إن أثر الدين والإيمان في النفس والحياة لا يمكن أن يكابر فيه إنسان منصف ولو كان من خصوم الإيمان.

وجدير بالذكر أن الإيمان الذي نعنيه هو الإيمان القوي الدافق الهادر، الإيمان حين يبلغ مداه ويشرق على القلب سناه، الحي اليقظ، إن هذا الإيمان كلما زاد عمقه في القلوب وسلطانه على النفوس ازداد أثره المبارك في حياة الأفراد والجماعات، وإذا كان هذا أثر الإيمان عامة فإن الإيمان الحق كما جاء به الإسلام أكثر نفعًا وأطيب أثرًا.

وهذا الإيمان – عقيدة الإسلام – هو مفتاح شخصية المسلم عامة والمسلم العربي خاصة، به تذكى شخصيته وتتفجر طاقاته ومن يقرأ التاريخ يعرف كيف صنعت عقيدة الإسلام هذا في الزمان والمكان، وهم اليوم الذين يبهرون الدنيا بالوقوف في وجه المجرمين المحتلين في فلسطين وغيرها.

ومن أجل هذا يسعى أعداؤه في وأد كل محاولة للنهوض والبناء على أساس منه، ويسمحون بكل محاولة للنهوض على أساس من غيره لثقتهم بعدم جدواها وقد أثبتت التجارب ذلك كله.

إن الإيمان يحقق المعاني الكبيرة التي ينشدها الإنسان والأهداف العميقة التي يجتهد في تحصيلها من كرامة وعزة وسيادة وحرية، من سعادة وسكينة وطمأنينة والراحة والأنس والمعية الربانية، ومن الرضا بالقضاء والقدر والأمن النفسي والأمل، ومن الصبر والثبات، الأمور التي يفتقدها من لا يؤمن بالله ولهذا يثوب إليها رغمًا عنه.

اجتمع بعض الأصدقاء في مدينة لندن مع مجموعة كبيرة معظمهم من المسلمين الجدد، منهم من كان وثنيًّا ومنهم من كان كتابيًّا ومنهم من كان بلا دين، وهم من بلاد مختلفة، وسألهم عما أعجبهم في الإسلام وشدهم إليه وجعلهم يلتزمون به ولأجله آمنوا به.

فبعضهم تحدث عن عقيدة الإسلام الواضحة وتوحيده الصافي، وبعضهم تحدث عن الزكاة التي يحصل بها التكافل بين أبناء المجتمع المسلم، وبعضهم تحدث عن الحج الذي يجمع هذا العدد من المسلمين في صعيد واحد متساوين، وبعضهم قال إن السبب في ذلك هو

علاقة المسلم بربه ولذة القرب التي يجدها المسلم في العبادات، وبعضهم قال إن السبب في ذلك هو الصوم وما فيه من معان لا يشاركه فيها دين غيره، وبعضهم قال إن السبب في ذلك هو الذكر وحلاوته، والدعاء ولذته، وبعضهم قال إن السبب في ذلك هو الارتباط الأسري وحرص الإسلام عليه.

وما قاله المسلمون العاديون هنا قالته نخبه من رجال الفكر والأدب وكبار السياسيين والعلماء والاجتماعيين في عدة أقطار يشرحون فيها ما رأوا في الإسلام من بينات جعلتهم يعتنقونه عن قناعة ليس فيها تردد أو شك.

فأشاروا إلى القرآن، الفطرة، الانتماء إلى أصل واحد وهو آدم، الأخوة الإسلامية الشاملة بين عباد الله جميعًا، احترام العقل ودعوته إلى النظر والبحث والتأمل والتدبر وبعده عن الاتباع الأعمى، وسماحته مع الأديان الأخرى واحترامها، النظافة والطهارة، الاعتدال والتيسير،

المساواة بين الناس، عدم الواسطة بين الله وخلقه، شمول دين الإسلام، التوازن بين متطلبات الروح والجسد.

فالحمد لله على هذا الدين العظيم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخاتمة:

هذه نهاية الكلمات المختصرة في تلك القضية العظيمة: "الأسئلة المصيرية"، ونلتقي – بمشيئة الله تعالى – مع القضية الرابعة من هذه القضايا العظيمة في الرسالة الرابعة" "أسماء الله"، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

أحمد الجوهري عبد الجواد